الفصل الأول

نشأة التفكير الإسلامي
وخصوصية العلوم الإسلامية المبكرة

مصطفى غنيمات[1]

مقدمة

أسهمت جملة من العوامل في نشوء الحضارة الإسلامية، ومن أهمها: القرآن الكريم. فقبل نزوله كانت العرب قبائل متناحرة، ولم تكن أمة ولا دولة واحدة، وكانت الجزيرة العربية تموج بمختلف المعتقدات؛ سواء ما كان منها محرفاً من الكتب السماوية السابقة، أو اعتقادات وثنية، أو تأليهاً للكواكب. ولم تكن الدول المتاخمة للجزيرة العربية بأحسن حال على هذا الصعيد.

وإذا كانت الجزيرة العربية قد شهدت جملة من المعارف الطبية والفلكية وغيرها، فإنها لم ترق إلى مستوى العلوم، وكانت الظروف الاجتماعية والسياسية وفساد المعتقدات السائدة داخل الجزيرة العربية وخارجها تُرهصُ لميلاد عهد جديد في تاريخ الإنسانية، وانقلاب على كل المعتقدات السائدة، خاصة بعد أن بلغت الإنسانية مرحلة الرشد واستقلال الفكر. وكان أن نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ ليكون دستوراً ومنهج حياة للبشرية ورحمة للعالمين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومن ثم فهو ليس كتاب علم أو فلسفة.

---

(1) دكتوراه في الفلسفة، جامعة محمد الخامس، أستاذ الفلسفة المشارك في جامعة الإسراء الخاصة- الأردن. البريد الإلكتروني: m_ghnaimat@yahoo.com

أعلن القرآن الكريم اختتام النبوة، وأنه لن يكون بعد نبي الإسلام نبي آخر، وأن عهد المعجزات والخوارق قد ولّى، وتدرج المسلمون في طلب المعرفة، فأقبلوا في صدر الإسلام على علوم القرآن والسنة، وحذقوا مباحثها، وتطرقوا إلى الأحكام الفقهية، وإلى مناقشة قضايا الدين للدفاع عنه في وجه خصومهم، فنشأ علم الفقه وعلم أصول الفقه، وعلم الكلام، بعيداً عن أي تأثير خارجي في نشأة هذه العلوم.

انكبَّ المسلمون على القرآن تفسيراً وتدبراً وفهماً. وبتأثير القرآن من جهة، وتأثير السنة بوصفها مصدراً ثانياً للتشريع الإسلامي من جهة ثانية، أخذت العلوم الإسلامية النقلية، تشق طريقها في استقلالية، وخصوصية، من حيث طبيعة التفكير الإسلامي في الإجابة عن الأسئلة الفلسفية التقليدية، والنشأة المستقلة المبكرة للعلوم الإسلامية، وفي ما يأتي بيان لذلك:

أولاً: طبيعة التفكير الإسلامي في الإجابة عن الأسئلة الفلسفية التقليدية

شهدت الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام طوائف ونحلاً متعددة، وصراعاً عقائدياً. فكان الجدال يدور بين اليهود والنصارى في المسائل الميتافيزيقية: الألوهية، والنبوة، والبعث والآخرة، والملائكة، إلخ.

وقد صوَّر القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ [البقرة: 113].

واتجهت الصابئة إلى عبادة الكواكب اعتقاداً منها أنها وسائط ضرورية لمعرفة الله وعبادته. وكان المجوس يؤمنون بإلهين: إله النور والخير، وإله الظلام والشر. أما المشركون من العرب فكانوا طوائف متباينة في اعتقاداتهم، فمنهم من اتخذ الأوثان وسائط بين الله والإنسان، وزعموا أنها تقربهم من الله زلفى. ومنهم من أنكر البعث واليوم الآخر، وهو ما يبيِّنه قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: 78–79].

ومنهم من وقع في الدهرية أو المادية المطلقة، فصاروا يقولون: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام: 29]. ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: 24].

وإزاء هذا الصراع العقائدي الذي كان سائداً داخل الجزيرة العربية وخارجها، اتجه فريق من العرب إلى عقيدة التوحيد. وكان عدم الاستقرار العقائدي يصحبه أيضاً عدم الاستقرار السياسي داخل الجزيرة العربية وخارجها، خاصة عند مشارف الحدود بين الدولتين الكبيرتين؛ فارس والروم، فأضحت الحاجة ضرورية لظهور الإسلام، لا لمصلحة العرب وحدهم، وإنما للناس كافة.

كان نزول القرآن الكريم على محمد ﷺ أهم وأعجب حادث في التاريخ البشري. فلأول مرة –من بين الكتب السماوية الأخرى– يظهر على الأرض كتاب "ذو كلمات وحروف إلهية" لم يكتب سطراً من سطوره "بشر"، ولم يخط حرفاً من حروفه "إنسان". وأعلن الكتاب الإلهي إعلاناً لا محيص عنه أنه آخر وحي من السماء، وأن رسالة السماء اكتملت به، وأن الدائرة الإلهية التي هبطت منها الألواح والصحف والكتب الإلهية الأخرى قد أقفلت نهائياً. وآمن أبناء إسماعيل بهذا الكتاب، وانطلقوا في سنوات قليلة يصوغون حياتهم طبقاً لقواعده، ويغيرون الراسخات من العادات والتقاليد في نفوسهم، ويرسمون لأنفسهم في ضوئه طريقاً جديداً لم يألفوه من قبل.[2]

وبتأثير القرآن الكريم والسنة النبوية شهدت الحياة الإسلامية نشأة مبكرة للعلوم الإسلامية. ومن ثم "فالتفكير العربي المتناثر وقتئذٍ والذي لم ينتج من قبل علماً أو فكراً متناسقاً بدأ يتجمع ويتركب، وهو بسبيل التخلص من تفكير الجاهلية الشارد."[3]

كان الخطاب القرآني موجهاً إلى الناس كافة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: 28].

---

(2) النشار، علي سامي. **نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام**، الرباط: دار المعرفة الجامعية، ط7، 1977م، ج1، ص31.

(3) المرجع السابق، ج3، ص31.

وكانت دعوة القرآن إلى الإيمان بالله "رب العالمين" الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، لا شريك له، "لم يلد ولم يولد" ومن ثم فليس هناك إله للخير وآخر للشر كما كان يعتقد المجوس. وليس هناك إله للجمال وإله للشمس وما إلى ذلك كما كان يعتقد اليونان، وليس هو محركاً أولاً كما اعتقد الفيلسوف اليوناني أرسطو؛ إذ "كان الدين اليوناني في مجموعه ديناً مختلاً، وأساطير غامضة، وتصورات مريضة."[4]

وعندما ترجمت علوم اليونان إلى اللسان العربي، وانكب علماء العرب والمسلمين على دراستها، نظر هؤلاء العلماء إلى تلك العلوم بحذر شديد، لارتباط العلوم اليونانية بالفلسفة، التي كانت تحوي في طياتها مضامين ميتافيزيقية تختلف في كثير من الأحيان عن ميتافيزيقا القرآن. فالله تعالى من منظور (ميتافيزيقي) قرآني، واحد لا شريك له، خلق الكون من العدم، وهو دائم الاتصال به، وقد أحاط بكل شيء علماً، بينما لا شيء من العدم من منظور ميتافيزيقي يوناني، والإله في نظر أرسطو لا يأبه بهذا الكون ولا يتدخل فيه.

يقول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 29].

ويقول تعالى أيضاً: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: 59].

ويتجه الخطاب القرآني إلى أهل الكتاب يدعوهم إلى كلمة سواء، إلى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به، وألا يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، لا نبياً ولا رسولاً، فكلهم لله عبيد، وإنما اصطفاهم الله للتبليغ عنه، لا لمشاركته في الربوبية والألوهية. يقول تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 64].

كانت دعوة القرآن إلى الدخول في طور جديد من حياة الإنسانية، يتسم بتوديع عهد النبوات واستقبال عصر جديد يتطلب قيام كل إنسان باستغلال طاقته

(4) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، بيروت: دار الشروق، ط10، 1982م، مج1، ج3، ص600-601.

الفكرية، وتنظيم حياته الفردية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية تنظيماً يستند إلى قواعد التشريع الإسلامي ومبادئه؛ إذ "اندفع القرآن الكريم إلى الإنسان يمجده في طوره الأخير، ويدفعه إلى اكتناه الآفاق الكونية. وقد عدّه مسؤولاً عن كل فعل من أفعاله، وعن كل سكنة من سكناته، فوضع المسؤولية الفردية، سمة الحياة الحديثة، في أقوى أسلوب."[5]

ولعل من أبرز مظاهر الانقلاب الذي أحدثه الإسلام إعلان القرآن صراحة أن قيادة العالم سوف تكون من الآن؛ أي من وقت اكتمال الوحي فصاعداً بيد الإنسان، الذي لم يعد كائناً تحت الحضانة، وأنه أصبح إنساناً راشداً، وعليه الاسترشاد بالمبادئ القرآنية، ثم انطلاقه بعد ذلك معتمداً على نفسه أو عقله في مواجهة خضم الحياة. وهذا هو جوهر فكرة "اختتام النبوة" التي جاء بها الإسلام، ودعا الإنسان عن طريقها إلى تكوين مجتمع إنساني، واستعمار الأرض التي استخلفه الله فيها.

يؤكد الفيلسوف محمد إقبال أن "النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها، وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على مقود يقاد منه، وأن الإنسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه، ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو. إن إبطال الإسلام للرهبنة ووراثة الملك ومناشدة القرآن للعقل والتجربة على الدوام، وإصراره على أن النظر في الكون والوقوف على أخبار الأوليين من مصادر المعرفة الإنسانية، كل ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة."[6]

ولما كان القرآن قد جاء يخاطب الناس جميعاً "فهو لا بد أن يرسم للناس قواعد الفكر والنظر إلى جانب قواعد الحياة العملية (الشريعة أو الفقه)، وأن يصور لهم الألوهية في صورتها النهائية (الميتافيزيقا)، وأن يعرفهم حقائق الطبيعة وقوانينها (الفيزيقا)، وأن يضع قواعد السلوك الإنساني (الأخلاق)، وألا يترك

(5) النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق، ج1، ص33.

(6) إقبال، محمد. **تجديد الفكر الديني في الإسلام**، ترجمة: عباس محمود، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط2، 1968م، ص144.

جانباً من جوانب الفكر والعمل أو الدين والشريعة إلا وأن يملأ الفجوة، وأن يضع الصورة الكاملة."[7]

ولقد كانت تلك القواعد والمبادئ القرآنية في العقيدة والتشريع اللبنة الأساسية في انطلاقة التفكير الإسلامي، ومن ثم النشأة المبكرة للعلوم الإسلامية. وجاء هذا التفكير ليجيب عن الأسئلة التي طرحتها الفلسفة التقليدية من جهة، وعن كثير من الأسئلة المتعلقة بالمسائل الفيزيقية من جهة أخرى.

ثانياً: الفلسفة اليونانية وإجاباتها عن الأسئلة الفلسفية

إن الفلسفة القديمة بإجماع معظم مؤرخيها قد بدأت مع اليونان. وكان التفكير الفلسفي في العصور القديمة يتمحور حول نوعين من المشكلات في إطار منهجية واحدة، وهي التأمل العقلي الخالص. فأحياناً يتناول مشكلات ميتافيزيقية لا تقع في دائرة الحس، ولا تخضع لسلطة الحواس، مثل المسائل أو القضايا المتعلقة بالألوهية وخلق الكون أو الوجود والنفس، والحياة الأخرى، وأحياناً أخرى يتناول مشكلات أو ظواهر طبيعية وبكيفية كلية، لكنها ظلت تحمل مضامين ميتافيزيقية.

بدأت الفلسفة مع اليونان في مراحلها الأولى عند الفلاسفة الطبيعيين الأوائل في حوالي القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، ففيهما انبثق النظر الفلسفي من الشعر الحكمي، وأشعار هوميروس (الإلياذة والأوديسة) بكيفية خاصة، ومن الخيال الأسطوري، فورث الفلاسفة صانعي الخرافة من شعراء الملاحم، الذين كان سبيلهم إلى دفع أية مشكلة تعترض خيالهم أن يخترعوا لها إلهاً، أو أن يفسروا حدوثها بتاريخ الآلهة وحياتها ومغامراتها.[8]

تحدثنا قصائد هوميروس في القرن التاسع قبل الميلاد عن آلهة اليونان، التي جعلوا لها صوراً بشرية، ولها العواطف البشرية نفسها، وأن زيوس Zeus أبو الآلهة والبشر على السواء، وأن القوة التي تحرك الجسد وهي الروح أو القلب

(7) النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق، ج1، ص31-32.

(8) العوا، عادل. **التجربة الفلسفية**، دمشق: مطبعة جامعة دمشق، ط2، 1964م، ج1، ص29.

تنحلُّ بالموت، فلا يبقى إلا الجسد، وتذهب الروح إلى ما دعاه هوميروس بِـ"المحيط الكبير" الذي تقوم فيه، وهو مدينة الموتى، وتفقد الروح كل صلة بالعالم الأول.[9]

اتجهت الفلسفة اليونانية في مرحلة نشوئها صوب الكون، الذي أدهش الفلاسفة. فكان السؤال الكبير الذي طرحه الفلاسفة في تلك المرحلة، ما أنت أيها الكون؟ ما أصلك؟ وما مصيرك؟ وقد كان الشغل الشاغل للفلاسفة في أول الأمر "هو إرجاع شتات الظواهر الطبيعية إلى مبدأ واحد أو بضعة مبادئ يمكن انطلاقاً منها فهم وتفسير ما يجري في هذا العالم الطبيعي الذي يعتبر الإنسان جزءاً منه، بجسمه على الأقل."[10] ولقد أطلق على الفلسفة في تلك المرحلة الفلسفة الكونية أو الطبيعية. فذا طاليس – أول فلاسفة اليونان – يرى أن الماء أصل الكون، فقال: "النبات والحيوان يتغذيان بالرطوبة، فالرطوبة مبدأ الحياة. ومبدأ الرطوبة الماء. فما منه يغتذي الشيء يتكون بالضرورة منه."[11] وكان هناك من قال إن التراب أصل الكون "باعتبار أن ما من شيء في الطبيعة إلا ويتحول إلى تراب."[12] وهناك من قال بأن الهواء أصل الكون أو الوجود وجوهره، وآخرون قالوا بأن النار أصل الكون.[13]

واستقر الأمر الأخير على "اعتبار العناصر الأربعة: الماء والتراب والهواء والنار، مكونات لجميع الأجسام على الأرض، بما في ذلك الإنسان."[14]

وإلى جانب المدرسة الطبيعية "التي كانت من أولى المدارس الفلسفية في اليونان، إن لم تكن هي الأولى على الإطلاق، قامت نظريات أخرى قال بعضها: ليس هناك مبدأ ثابت يمكن إرجاع كل شيء إليه، لا العناصر الأربعة ولا غيرها،

---

(9) الجابري، محمد عابد. **العقل الأخلاقي العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2001م، ج4، ص258.

(10) المرجع السابق، ج4، ص258.

(11) العوا، **التجربة الفلسفية**، مرجع سابق، ج1، ص34.

(12) الجابري، **العقل الأخلاقي العربي**، مرجع سابق، ج4، ص258.

(13) العوا، **التجربة الفلسفية**، مرجع سابق، ج1، ص35، 39.

(14) الجابري، **العقل الأخلاقي العربي**، مرجع سابق، ج4، ص258.

لأن الحقيقة الوحيدة التي يكشف عنها هذا الكون هي أنه في تغير دائم، فالتغير هو المبدأ. وقال آخرون بآراء مخالفة بل ومناقضة لهذه."[15]

وظهرت نظرية فلسفية يونانية تقول بأنه ليست هناك حقيقة ثابتة يمكن عدّها أصلاً للكون، فإن الحقيقة هي كما تبدو لي وهي أيضاً كما تبدو لك، ومن ثم فالإنسان الفرد هو الذي يضفي على الأشياء في هذا العالم "ما يعتبره فيها حقائق ثابتة، وهي في الحقيقة غير ثابتة."[16] فالإنسان هو مقياس الأشياء جميعاً، ما يوجد منها وما لا يوجد، وهو مقياس الخير والشر. إنها النزعة السفسطائية[17] التي جاء أسلوبها يستند إلى المبدأ القائل "الغاية تبرر الوسيلة".

برع السفسطائيون –المغالطون– في الجدل والخطابة، وكانوا يعلِّمون الناس ذلك، "ويفاخرون بقدرتهم على تأييد القضية وعكسها، والقول وضده على السواء."[18] ولم يكن السفسطائيون يهدفون إلى بلوغ الحقيقة، وإنما استهدفوا النجاح في الجدل والخطابة، ومن ثم انتهوا إلى أنه "لا يوجد علم بل توجد آراء، ولا وجود لحقيقة، بل توجد أشياء تظهر بمظهر الحقيقة وحسب، وكل اعتقاد نسبي، يستوي في ذلك نسبية المعرفة ونسبية الأخلاق."[19] فالعدل خير بالنسبة إلى الحاكم والمحكوم له، وشر بالنسبة إلى المحكوم عليه. وهكذا "وبدلاً من الأخلاق التي كانت تربط السعادة برضا الآلهة الذين كانوا يتصرفون كالبشر في "عالم آخر"، أصبحت الأخلاق مرتبطة بالنجاح والمنفعة في هذا العالم... نجاح الفرد ومنفعة الفرد."[20]

وجاء سقراط وتخلّى "عن فكرة أن الإنسان مقياس كل شيء، وحاول عن طريق الحوار السقراطي أن يثبت أن وراء النسبية –التي تسوِّغ ادعاء أن الإنسان مقياس كل شيء– أشياء ثابتة... اهتم سقراط بإثبات أن هناك وراء الحس أموراً

(15) المرجع السابق، ج4، ص258.

(16) المرجع السابق، ج4، ص259.

(17) السفسطة: مجادلات قائمة على حجج براقة تجسد مغالطات خداعة. [المحررون]

(18) العوا، **التجربة الفلسفية**، مرجع سابق، ج1، ص47.

(19) المرجع السابق، ج1، ص48–49.

(20) المرجع السابق، ج4، ص259.

ثابتة أو ماهيات، هي القيم. فالخير خير في كل زمان وفي كل مكان ولدى جميع الناس، والشر كذلك."[21] فالمعرفة في نظر سقراط هي الفضيلة ذاتها؛ إنها الخير ذاته، وبمعرفة الخير والأفضل، سيعرف الإنسان الشر والقبيح ويتجنبهما، وتلك هي السعادة؛ سعادة الإنسان الفرد. ومن هنا يؤكد سقراط أن "من يعرف الخير لا بدّ أن يفعله، ومن يعرف الشر لا بدّ أن يتجنبه."[22] ومن ثم فالفضيلة علم والرذيلة جهل. وهدف العلم الوصول إلى الحقيقة، وهي الفضيلة، وهي الخير بالذات. فالميل إلى الخير فطري في الإنسان، بمعنى أن نفسه هي التي تدفعه إلى فعل الخير. ولمعرفة الخير يجب معرفة النفس، ومن هنا اتخذ سقراط شعاراً لفلسفته "اعرف نفسك بنفسك"، وبذلك وجَّه سقراط الفلسفة نحو الإنسان بعد أن كانت تتمحور حول الكون والطبيعة، الشيء الذي جعل "شيشرون" يقول إن سقراط "أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض."[23]

وإذا كان السفسطائيون قد تفاخروا بأنهم أوجدوا جواباً لكل سؤال بإنكارهم العلم، فإن سقراط جاء يقول: "كل ما أعلم هو أنني لا أعلم شيئاً،"[24] الأمر الذي يعني أن شعور الإنسان بالجهل يُعدُّ لديه دافعاً يحركه نحو طلب المعرفة أو الحقيقة.

أما الفيلسوف أفلاطون، تلميذ سقراط، فقد رأى أن ما يصدق عليه قول السفسطائيين "الإنسان مقياس كل شيء" هو فعلاً هذا العالم الحسي المتغير الذي يطبعه التعدد". ولكن وراء هذه الأشياء المتغيرة المتعددة هناك النماذج الثابتة أو "المُثُل" التي تمثل حقائق الأشياء، التي تعمر العالم المعقول؛ عالم المفاهيم المجردة.[25] ولقد جاءت آراء أفلاطون السياسية والاجتماعية والأخلاقية قائمة على مذهبه الفلسفي الذي يستند إلى نظرية المُثُل. فهو يميز بين عالمين: العالم المحسوس، وهو العالم الذي يعتريه التبدل والتغير، ونعيش فيه بحواسنا، وهو

(21) المرجع السابق، ج4، ص259.

(22) المرجع السابق، ج4، ص260.

(23) العوا، **التجربة الفلسفية**، مرجع سابق، ج1، ص54.

(24) المرجع السابق، ج1، ص54.

(25) الجابري، **العقل الأخلاقي العربي**، مرجع سابق، ج4، ص260-261.

وَهْم وسراب لا حقيقة له. والعالم المعقول وهو عالم المُثُل الأزلية الأبدية الخالدة والثابتة، إنه عالم الحقائق المطلقة الذي تعمره المعاني الكلية وعلى رأسها مثال الخير.[26]

والمعرفة في نظر أفلاطون تنقسم إلى المعرفة الحسية، وهي مباشرة كإدراكنا الأشجار ذاتها، والمعرفة غير المباشرة التي تقوم على الظن والتخمين، وموضوعها الرؤى والأخيلة كإدراكنا خيالات الأشجار في الماء. ثم المعرفة العقلية وهي العلم. وهذه المعرفة إما مباشرة حدسية، وهي المعرفة الفلسفية، أو غير مباشرة؛ أي استدلالية وهي المعرفة الرياضية.[27]

وكما ميز أفلاطون بين عالمين "يميز النفس الإنسانية من البدن. فللإنسان نفس كانت تسكن العالم المعقول قبل اتصالها بالجسم، لذلك كانت رؤية الأشياء المحسوسة تثير فيها ذكريات غافية، وهذا ما يدعوه أفلاطون بِـ"التذكر". وعلى دراسة أفلاطون للنفس الإنسانية وقواها تقوم آراؤه في الأخلاق، وإلى هذه الآراء تستند فلسفته الاجتماعية."[28] إذن، كان مبحث الوجود هو الموضوع الأساسي الوحيد للفلسفة التقليدية قبل إضافة مبحثي المعرفة والقيم. والبحث في الوجود من حيث هو موجود يقتضي البحث في معنى الوجود وعلته وغايته ومصيره. ولقد تعددت الإجابات الفلسفية وتباينت حول المسائل الميتافيزيقية، بل إنها تباينت في إجابات الفلاسفة المتعلقة بالقضايا الفيزيقية والاجتماعية والأخلاقية.

يميز أرسطو بين معنيين للفلسفة؛ الفلسفة بمعناها الخاص وهي الفلسفة الأولى الميتافيزيقا، والفلسفة بمعناها العام التي تتناول موضوعاتُها الطبيعةَ والمجتمع والسياسة والأخلاق. أما الفلسفة الأولى فموضوعها معرفة الوجود بما هو موجود، أي العلم بالأسباب والعلل والمبادئ الأولى للوجود.[29] ويرى

---

(26) اليافي، عبد الكريم. **تمهيد في علم الاجتماع**، دمشق: مطبعة جامعة دمشق، ط4، 1964م، ص30-31.

(27) المرجع السابق، ص31.

(28) المرجع السابق، ص33.

(29) العوا، **التجربة الفلسفية**، مرجع سابق، ج1، ص63.

أرسطو أن أقدم أشكال الوجود هي الهيولى أو المادة الأولى، وهي أزلية، وقد كانت فوضى لا صورة خاصة لها، ثم أخذت تتطور فتنوعت وبدأت تظهر فيها صور بدائية، ثم نشأت العناصر الأربعة، ثم تطورت المادة وتلبست صوراً مختلفة، فنشأت الأجسام، وأصبح كل منها متحيزاً في مكان خاص ومتميزاً عن غيره.[30]

ثالثاً: الوحي (القرآن والسنة) مصدراً للإجابات الفلسفية في الفكر الإسلامي

ما من شك في أن التفكير الإسلامي يستند أساساً إلى القرآن والسنة، ومن ثم فإن العلوم الإسلامية المبكرة ستتمحور حول هذين الأصلين أو المصدرين.

لم يكن القرآن الكريم لدى الصحابة كتابَ مواعظ أخلاقية وحسب، أو تاريخاً أنزل للعبرة عن قرون ماضية، وإنما كان دستوراً ومنهج حياة للبشرية، "وكتاب "ميتافيزيقا" وفيزيقي وإنساني وأخلاقي وعملي وضع الخطوط الرئيسة للوجود كله، فهو كتاب الكون منذ نشأته إلى فنائه."[31] وكان لا بدّ للمؤمنين بهذا القرآن "أن يتلمسوا فيه أصول تفكيرهم، وأن يطمئنوا إلى أحكامه الكلية، وأن يجتهدوا ما شاء لهم الاجتهاد في محيطه الواسع."[32]

وإلى جانب القرآن وجدت السنة، وهي ما صدر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، وقصد به التشريع ووجوب الالتزام به. والتمس المسلمون في هذا الأصل "مادة فكرهم وعملهم. وسار الأصلان متعاونين يرسمان الحياة الجديدة ويرسخانها في جميع قواعدها."[33]

ولقد جاء القرآن مشتملاً على "إشارات" أو "لفتات علمية"، وهي حقائق مطلقة لم يتوصل العلم إلى بعضها إلا حديثاً. وقد وجه القرآن العقل إلى ارتيادها،

---

(30) غنيمات، مصطفى. **الحضارة والفكر العالمي**، عمان: دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع، 2005م، ص169-171.

(31) النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق، ج1، ص32.

(32) المرجع السابق، ج1، ص32.

(33) المرجع السابق، ج1، ص32.

ومن ثم "اندفع العقل في نطاقها فأبدع "العلم" وأقام "الحياة."[34] وهذا لا يعني أن القرآن كتاب علم أو نظريات في العلم، لأن الحقائق العلمية التي يكتشفها العلماء توصف من منظور إبستمولوجي[35] بأنها حقائق نسبية لا مطلقة. يقول الله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات: 20-21].

فالقرآن الكريم ليس كتاب نظريات علمية أو نفسية، لكنه يحوي التوجيهات الكاملة الكافية، ويثير الطاقة الإنسانية لإنشاء هذه النظريات. إنه كتاب تربية وتوجيه "وفي سبيل هذا التوجيه يكشف الإنسان عن بعض أسرار نفسه وأسرار الكون من حوله، ويدعوه إلى دراسة هذه وتلك، ليعرف ويتعلم، ومن ثم يتجه الاتجاه الصحيح في هذه الحياة. إنه منهج التربية العقلية الذي يوجه العقل إلى اكتشاف أسرار الكون والاستفادة منها في جميع مناحي الحياة."[36]

والقرآن يحث على إعمال العقل واكتساب المعارف المتعلقة بمختلف جوانب الوجود. يقول الله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر: 9]. فالإنسان يولد ولا يعلم شيئاً، لكن الله وهبه أدوات المعرفة من سمع وبصر وفؤاد، يقول تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [النحل: 78]. وبذلك يكتسب الإنسان المعارف بثلاث طرق: التعليم بالوحي؛ على لسان الرسل، والحواس، والعقل بالتفكير والاستقراء."[37]

والقرآن ينهى المؤمنين عن الإكثار من الظن؛ لأن بعض الظن إثم، ولأن الظن لا يغني من الحق شيئاً، وفي ذلك توجيه ودعوة إلى تبني المعارف بعد التثبت من صحتها ويقينيتها. يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ

(34) المرجع السابق، ج1، ص32.

(35) الإبستمولوجيا: هي نظرية المعرفة أو فلسفة العلم، وهي قدرة الإنسان على معرفة الواقع، ومصادر المعرفة، ومناهجها الحقيقية، ووسائل بلوغها. [المحررون]

(36) قطب، **دراسات في النفس الإنسانية**، الكويت: دار القلم، ص8.

(37) فروخ، عمر. **تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون**، بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1983م، ص181.

ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: 12]. ويقول سبحانه: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [يونس: 36]

والقرآن في دعوته إلى طلب المعرفة يطلب الاحتكام إلى الحجة والبرهان واستخدام الحوار المنهجي المثمر، والتزام أصوله الفكرية والأخلاقية. ويطلق على هذا الحوار "الجدال بالتي هي أحسن". فيقول تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النمل: 125]. كما يثير القرآن طاقة العقل الإنساني ويوجهه إلى مشاهدة مختلف ظواهر هذا الكون، وإدراكها، فيقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: 30]. ويقول تعالى أيضاً: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: 53]. ويلفت القرآن الأنظار إلى ما في هذا الكون من نظام وتوازن وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: 49].

وإذا كانت الفلسفة بمعناها اللغوي التقليدي تعني طلب الحكمة ومحبتها، وأن الحكمة هي المعرفة الشمولية المتعلقة بالإنسان والكون والحياة، وأن غايتها الوصول إلى الحقيقة، فإن التفكير الإسلامي المستند إلى القرآن والسنة قد "التزم بالتوجيهات الإلهية المتعلقة بالبحث عن المعارف اليقينية من جهة، والوقوف عند الإجابات أو الحقائق القرآنية المطلقة المتعلقة بالإنسان والكون والحياة والإيمان بها من جهة ثانية. يقول الرسول ﷺ: "الحكمة ضالة المؤمن". فقد التزم التفكير الإسلامي بالحقائق القرآنية المتعلقة بالإجابة عن الأسئلة التالية: ما الإنسان؟ وما وظيفته؟ ما دوره في هذه الحياة؟ ما حدود علمه؟"[38]

والإنسان من منظور قرآني قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله. يقول تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص: 71-72]. والإنسان مستخلف في الأرض، وذلك استناداً إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: 30].

ولقد زود اللهُ الإنسان بالأدوات التي تساعده على النهوض بمهمة الخلافة.

(38) قطب، محمد. **دراسات في النفس الإنسانية**، مرجع سابق، ص11.

والخلافة عن الله في هذه الأرض "معناها الإنشاء والابتكار والتعمير والتبديل والتغيير. وكلها من عمل الله الذي أعطى قبسة للخليفة الذي استخلفه فيها، وزوده كذلك بالإمكانيات. والإمكانية الكبرى هي المعرفة.. هي العلم."[39]

وقد جاء خلق الإنسان في أحسن تقويم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: 4]. والإنسان لم يخلق عبثاً استناداً إلى قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: 115]. فالإنسان مخلوق لغاية وهي العبادة. يقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56].

ولقد أودع الله في الإنسان القدرةَ على المعرفة والارتقاء بها، لكن هذه القدرة محدودة، فمجال العلوم الإنسانية والطبيعية هي بمثابة بحر لا ساحل له، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 85]. ويقول بعض العلماء: لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته لكنا قد بدأنا العلم بالنقيصة، ولكنا نطلبه لننقص في كل يوم من الجهل، ونزداد في كل يوم من العلم.[40]

والإنسان مخلوق ضعيف. يقول الله تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: 28]. إنه مخلوق يشتمل على نقطة ضعف وهي حبه للشهوات ونسيان العهد والهدى والكفر بآيات الله، لكنه مزود بالقدرة على الإفاقة من هذا الضعف بالتوجه إلى الله، ومن ثم فهذا الضعف ليس أبدياً، فهو يملك أن يفيق من زلته. يقول الله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: 37]. إنه مخلوق ذو طبيعة مزدوجة، فهو يملك القدرة على الارتفاع إلى أقصى مدى، والقدرة على الهبوط إلى الحضيض.[41] يقول تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: 7–10]. ويقول تعالى أيضاً: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: 10].

وإذا كانت الفلسفة التقليدية –خاصة عند فلاسفة الطبيعة الذين أدهشهم الكون فتساءلوا عن أصله ومصيره– قد تمحورت حول الكون أو الوجود

---

(39) المرجع السابق، ص30.

(40) السيد، عزمي طه وآخرون. **الثقافة الإسلامية: مفهومها، مصادرها، خصائصها، مجالاتها**، عمان: دار المناهج للنشر والتوزيع، ط2، 1997م، ص174.

(41) قطب، **دراسات في النفس الإنسانية**، مرجع سابق، ص33–34.

والمعرفة والقيم، فالتفكير الإسلامي قد جاء ليستجيب للوحي الإلهي المتعلق بتلك القضايا الميتافيزيقية. فالكون بسماواته السبع وأراضيه ليس أزلياً وليس أبدياً، خلقه الله من العدم، وسخره لهذا الإنسان الذي استخلفه في هذه الأرض واستعمره فيها. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ [يونس: 3]. وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 29]. وقوله تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: 51]. والكون بسماواته وأراضيه سخره الله لهذا الإنسان. فيقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [لقمان: 20]. والله تعالى هو الأعلم بحقيقة الإنسان، فيقول تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: 14]. وإذا كان الإله في نظر أرسطو المحرك الأول الذي لا يتحرك، ولا يأبه بهذا الكون، فإن التفكير الإسلامي قد جاء ليستجيب للنداء الرباني القائل: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: 61].

إذن، هناك حقائق توقيفية اشتمل عليها القرآن الكريم، وهي "التي لا مجال للعقل أن يرتادها."[42] وإذا حاول العقل الإنساني بحثها أو ارتيادها فإنه -لا محالة- سيقع في التناقضات ولن يصل إلى الحقيقة؛ لأنها خارج نطاق هذا العقل وطاقته. ومن هنا فقد كان على التفكير الإسلامي في مرحلة نشوئه المبكرة أن يقف عندها مسلماً بها فلا يتجاوزها. فمما يروى في ذلك أن مالك بن أنس -رضي الله عنه- سئل عن كيفية استواء الرحمن على العرش، فأطرق برأسه ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.[43]

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الفيلسوف الألماني "كانط" المتوفى عام 1804م قد وضع حدوداً للعقل على صعيد معرفته اليقينية. فقد كان أحد محاور فلسفته السؤال الآتي: ماذا يمكنني أن أعرف؟. والإجابة عن هذا السؤال تتعلق

(42) النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق، ج1، ص32.

(43) أمين، أحمد. **ضحى الإسلام**، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط7، 1936م، ج3، ص15.

بالمدى الذي يمكن أن نحصل فيه على معارف يقينية ثابتة، بالإضافة إلى ما لدينا من وسائل الاطلاع والبرهان. ومن ثم يقرر هذا الفيلسوف أن للعقل حدوداً في معرفته اليقينية، وهذه الحدود هي ظواهر الأشياء التي تمدنا الحواس بالمدركات الحسية عنها. أما الأشياء في ذاتها فلا سبيل للوصول إلى معارف يقينية عنها. "فالعقل الإنساني عقل متناهٍ محدود الطاقة، لا يمكنه أن يعرف من الموضوعات إلا ما كان داخلاً في إطارِ العيان الحسي."[44] كما يؤكد أن مبحث الوجود؛ الأنطولوجيا[45] ميدان مغلق أمام العقل الإنساني إلى الأبد، وأننا "لا نستطيع أبداً أن نعرف الأشياء في ذاتها."[46] يقول كانط: "شيئان يملآن الروح والقلب إعجاباً وإجلالاً، يتجددان وينموان كلما أمعنا فيهما النظر والفكر، السماء ذات النجوم فوق رأسي، والقانون الأخلاقي في أعماق نفسي."[47] وهكذا يؤكد كانط أن العقل حين يبحث في القضايا أو المسائل الميتافيزيقية فإنه سيقع في التناقضات، وما على الإنسان إلا أن يصدق ويؤمن بما ورد في ذلك من أفكار أو حقائق في الدين السماوي.[48]

وما من شك في أن "محاولة إدراك ما وراء الواقع (القضايا الغيبية) بالعقل المحدود الطاقة بحدود هذه الأرض والحياة عليها محاولة فاشلة أولاً، ومحاولة عبثية أخيراً؛ فاشلة لأنها تستخدم أداة لم تخلق لرصد هذا المجال؛ وعابثة لأنها تبدد طاقة العقل التي لم تخلق لمثل هذا المجال. ومتى سلم العقل بالبديهية العقلية الأولى، وهي أن المحدود لا يدرك المطلق، لزمه – احتراماً لمنطقه ذاته – أن يسلم بأن إدراكه للمطلق مستحيل. وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل، وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير الذي يحيط بالظاهر والباطن، والغيب والشهادة."[49]

---

(44) كانط، إمانويل. **تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق**، ترجمه وقدم له وعلق عليه: عبد الغفار مكاوي، وراجع الترجمة: عبد الرحمن بدوي، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1965، ص47.

(45) الأنطولوجيا: نظرية الوجود بشكل عام. [المحررون]

(46) كانط، **تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق**، مرجع سابق، ص112.

(47) العوا، **التجربة الفلسفية**، مرجع سابق، ج1، ص336.

(48) السيد، **الثقافة الإسلامية**، مرجع سابق، ص364.

(49) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، مج1، ص42–43.

واستجاب التفكير الإسلامي للوحي الإلهي في هذا الشأن ولمنطق العقل ذاته، مؤمناً ومذعناً للتوجيهات والأوامر الإلهية. ولقد أعلمنا الله تعالى من الغيب بالقدر الذي نحتاجه في حياتنا، وبالقدر الذي يمكننا إدراكه وفهمه والاستفادة منه.[50] وفي ذلك احترام للعقل البشري حتى لا يقع في التناقضات، إذا ما حاول ارتياد هذا الميدان الميتافيزيقي، بحثاً عن الحقائق المتعلقة به. وصدق الله العظيم القائل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 85].

يتعلق الأمر، إذن، بالحقائق التوقيفية أو القضايا الميتافيزيقية المتعلقة بالوجود من حيث هو وجود، والله من حيث هو إله. فقد أعلن القرآن وحدانية الله وفاعليته، مقابلاً لكل تفكير ميتافيزيقي عن فكرة الله، ومنكراً لتصور فكرة الله عند اليونان، سواء أكان صانعاً أم محركاً أولاً، إلخ. كما أعلن القرآن فكرة الخلق. فالله تعالى هو الخالق، وأنه خلق الكون من العدم أو من اللاشيء، وبذلك أنكر فكرة أزلية المادة. فالكون له بداية وله نهاية. كما أعلن القرآن بدء الزمان ونهايته. وبهذا أنكر سرمدية المادة وعدم فنائها. ومن ثم فالقرآن الكريم "لم يترك نظرية أو مذهباً فلسفياً شُغِلَ به العقل الإنساني دون أن يبحث فيه، وأن يضع أصوله العامة."[51]

رابعاً: النشأة المستقلة المبكرة للعلوم الإسلامية وخصوصيتها

كان القرآن أولاً هو الذي حقق التأثير الأعظم في نشوء العلوم الإسلامية المبكرة في العصور الإسلامية. وقد امتدت آفاق الدراسات القرآنية وأثرت –ولا تزال تؤثر– في مختلف مناحي الفكر الإسلامي "فما من تيار فكري في تاريخ حضارتنا إلا وقد برز فيه جانب من جوانب الموضوعات القرآنية التي قامت حولها المدارس والمذاهب والآراء. وتلا الاهتمام بالحديث والسنة الاهتمام بالقرآن، فنشأت علوم القرآن وعلوم الحديث وعلوم اللغة تلبية لحاجة الفكر العربي المسلم إلى تفهم العقيدة وتنظيم التشريع."[52]

---

(50) السيد، **الثقافة الإسلامية**، مرجع سابق، ص365.

(51) النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق، ص 32.

(52) العوا، **التجربة الفلسفية**، مرجع سابق، ج1، ص106.

وهكذا نجد أنه من "النظر في قوانين القرآن العملية نشأ الفقه، ومن النظر فيه ككتاب يضع الميتافيزيقا نشأ علم الكلام، ومن النظر فيه ككتاب أخروي نشأ الزهد والتصوف والأخلاق. ومن النظر فيه ككتاب للحكم نشأ علم السياسة، ومن النظر فيه كلغة إلهية نشأت علوم اللغة، إلخ. وتطور العلوم الإسلامية جميعها إنما ينبغي أن يبحث في هذا النطاق: في النطاق القرآني نشأت، وفيه نضجت وترعرعت، وفيه تطورت، وواجهت علوم الأمم تؤيدها أو تنكرها في ضوئه."[53] وسيحاول هذا المبحث التركيز على العلوم النقلية خاصة، لما لها من خصوصية وارتباط عميق بالتفكير الإسلامي، والرؤية الإسلامية، والنص الديني.

1 – علم التفسير

لـمّا كان القرآن عند نزوله محور اهتمامات المسلمين فقد اتجهوا إليه يقرأونه ويتدبرونه؛ لغوياً، وبلاغياً، وتاريخياً، واجتماعياً، واقتصادياً...، ولمعرفة الأحكام الشرعية الواردة فيه لغايات تطبيقها، فاستلزم ذلك تفسير القرآن، ومن ثم نشأ علم التفسير؛ إذ دعا إليه عاملان أساسيان، هما:

أ – شرح المضمون الديني للنص اللغوي. فقد حمَّل القرآن الكريم اللغة العربية مضامين جديدة لم تكن تحملها من قبل، سواء على مستوى الشريعة أو السلوك العملي.

ب – دخول جماعات غير عربية في الإسلام، تجهل اللغة العربية، حتى وإن تعلمتها فإنها تظل بحاجة إلى من يفسر لها لغة القرآن وشرح ما تحمله آياته من مضامين. فكيف كان يمارس هذا التفسير؟

كان من الضروري أن يتناول التفسير في آن واحد اللفظ والمضمون الديني للآيات القرآنية؛ أي لا بدّ من معرفة المعنى اللغوي أولاً، وهذا ما كانت تحتاج إليه القبائل العربية، وكل مَن دخل الإسلام من غير العرب. كما كان من الضروري شرح المضمون الديني للغة القرآن؛ إذ إن مضمون الآيات القرآنية كان يرتبط –في الغالب– بالظروف التي نزلت فيها الآيات؛ أي بأسباب النزول. فكانت الآية

(53) النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق، ج1، ص227.

القرآنية تجيب عن سؤال أو عن وضعية، أو ترد على اعتراض من المشركين، أو تُثبت حكماً... الأمر الذي يعني أن فهم كثير من الآيات القرآنية كان يتوقف على إيضاح المناسبات التي نزلت فيها الآيات.

وتطلَّب الأمر كذلك البحث في الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم؛ أي إن هناك آيات جاءت تقرر حكماً معيناً، وأخرى تقرر حكماً يختلف عما تقرره الأولى، فالثانية ناسخة لما تقرره الأولى. ومعرفة الناسخ والمنسوخ أمر ضروري لإقرار الأحكام، فتطلب ذلك معرفة السابق واللاحق من الآيات القرآنية.

ومثل ذلك نشوء علم المحكم والمتشابه، ففي القرآن الكريم آيات محكمات وأُخَرُ متشابهات استناداً إلى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران: 7].

وهنا يتفاوت الناس في استقبال هذه الآيات. فأما الذين في قلوبهم زيغ وانحراف -ميل عن الهدى إلى الضلال- فيتركون الأصول الواضحة التي تستند إليها العقيدة والشريعة، ويتبعون المتشابه منه؛ لأنهم يجدون فيه مجالاً لإيقاع الفتنة بتأويلاتهم المزلزلة للعقيدة، فيوهمون أتباعهم بأنهم يبتغون تفسير كلام الله، ولا يعلم تفسير المتشابه ومعناه الحقيقي إلا الله. لكن الراسخين في العلم الذين بلغ من علمهم أن يعرفوا مجال العقل وطبيعة التفكير البشري، وحدود المجال الذي يملك العمل فيه بوسائله الممنوحة له، يؤمنون بكل من المحكم والمتشابه لأنه كلام الله.[54] أما الأصول الدقيقة للعقيدة والشريعة فهي "مفهومة المدلولات قاطعة الدلالة، مدركة المقاصد - وهي أصل هذا الكتاب، وأما السمعيات والغيبيات - ومنها نشأة عيسى عليه السلام ومولده - فقد جاءت للوقوف عند مدلولاتها القريبة والتصديق بها لأنها صادرة من هذا المصدر "الحق" ويصعب إدراك ماهياتها وكيفياتها، لأنها بطبيعتها فوق وسائل الإدراك الإنساني المحدود."[55]

---

(54) المرجع السابق، ج1، ص227.

(55) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، مج1، ج3، ص543.

لقد فرضت المعطيات السابقة قيام علم التفسير منذ العصر الإسلامي الأول. وقد تطلب ذلك الرجوع إلى عهد النبي ﷺ والصحابة الذين عاشوا فترة الوحي، والذين يعرفون مناسبات نزول الآيات القرآنية، والناسخ والمنسوخ منها، والآيات المحكمات والآيات المتشابهات.

وكان من الضروري ظهور طريقة في التفسير تعتمد الرواية؛ أي ما قيل في آية أو موضوع معين زمان النبي ﷺ، وما رواه الصحابة عنه فيما بعد. لكن ذلك لم يكن ليغني عن استعمال العقل لفهم المضمون الديني للآيات. ومن هنا فقد كان الاجتهاد ضرورياً. ومن المفسرين مَن غلَّب الجانب الأول: الرواية، وهم في الغالب ممن كانوا يسكنون المدينة؛ إذ كان يسهل عليهم الرجوع إلى ما قاله النبي ﷺ وما أقره الصحابة لوجودهم هناك. أما من غلَّبوا الرأي: استعمال العقل، فقد كانوا يقطنون المراكز الإسلامية الحضارية بصفة خاصة؛ إذ قلَّ فيها وجود الصحابة، الذين يمكن أن ينقل عنهم المعنى الذي أعطي للآية، وكان هؤلاء -أصحاب الرأي- يوجدون في العراق.[56]

2 - علم القراءات

وإلى جانب علم التفسير نشأ علم القراءات لضبط القراءات الصحيحة التي قرئ بها القرآن زمن النبي ﷺ. أما الدافع إلى نشأة هذا العلم فهو "أن القرآن وإن نزل بلغة قريش فقد استعمل صياغات لغوية مما تستعمله قبائل أخرى. ومعلوم أن اللغة الواحدة تختلف من منطقة إلى أخرى في الشعب الواحد. ولقد كان هذا الاختلاف أكبر وأوسع بالنسبة للقبائل العربية التي كان لكل منها لهجة خاصة تختلف عن اللهجات الأخرى، فكان لا بد من ضبط هذه القراءات التي حصرت في سبع قراءات. وهناك من رفع عددها إلى عشر قراءات."[57]

ومع كون علم القراءات قد ساعد المفسرين على فهم النص القرآني، وحصر

---

(56) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. **المقدمة**، بيروت: دار الرائد العربي، ط5، 1982م، ص446-447.

(57) الجابري، محمد عابد. محاضرة ألقيت على طلبة الماجستير، الرباط: جامعة محمد الخامس، 1978م. انظر أيضاً:

- ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ص437.

المدلولات التي يمكن أن يتضمنها، إلا أن التفسير ظل دوماً أمراً ليس سهلاً، حتى عندما يتعلق الأمر باعتماد الرواية في التفسير، كان لا بدّ من الاجتهاد. كما أن القرآن له طابعه الخاص، فتراكيبه وبلاغته، وسحر جمال صياغة آياته، إلخ، كل ذلك يجعل من التفسير على أساس الاجتهاد عملية صعبة أيضاً، "خاصة والجملة القرآنية غالباً ما تستعصي على التقنين، فهي جملة مفتوحة تقبل عدة تقسيمات، وتحتمل وضع الفواصل بشكل مختلف بين أجزائها."[58]

3 – علم اللغة

وتطلَّب تفسير القرآن الكريم الاهتمام باللغة، فظهر فريق من العلماء تركزت اهتماماتهم حول جمع مفردات اللغة العربية، وحصر الألفاظ الدخيلة عليها من لغات أخرى. فلما اتسعت الفتوحات الإسلامية واختلط العرب بالأعاجم "ورأوا اختلاف الآراء وانتشار المذاهب، وتطرق الفساد إلى اللغة، آل الأمر إلى التدوين والتحصين عملاً بقول النبي ﷺ: "العلم صيد والكتابة قيد، قيدوا رحمكم الله علومكم بالكتابة."[59] ومعلوم أن اللغة هي أولى الوسائل لفهم القرآن الكريم.

وقد انطلقت عملية جمع اللغة العربية في عصر التدوين، بعد أن بدأ اللحن يتفشى فيها، فساعد ذلك على استمرار التعامل مع القرآن بكيفية مباشرة فهماً وتفسيراً. ولما كان الاختلاط الذي حصل في الحواضر سبباً للحن فقد كان طبيعياً أن تطلب اللغة الصحيحة في البوادي، ومن القبائل التي ظلت منعزلة ومحافظة على الفطرة والسليقة وسلامة النطق.[60]

وكان ابتداء المسلمين بالتصنيف والتدوين في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة. وحينما ابتدأ المسلمون في تدوين اللغة وتقييد شواردها، وضبط أوابدها، في الأمصار التي نشأ العلماء بها؛ البصرة والكوفة والحيرة، ثم بعد ذلك بغداد، وغيرها من الأمصار، فكانت هذه الأمصار مقراً للعلماء الذين اشتغلوا

(58) الجابري، **محاضرة**، مرجع سابق.

(59) عيسى، أحمد. **تاريخ النبات عند العرب**، مصر: مطبعة الاعتماد، 1944م، ص8.

(60) الجابري، محمد عابد. **التراث والحداثة**، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1991م، ص153.

بالتقييد والتعليم من جهة، ومهبطاً لفصحاء الأعراب الوافدين عليها من البادية حاملين إلى سكان الأمصار صحيح اللغة وفصيحها، الذي لم يتطرق إليه الفساد بالاختلاط بالأعاجم من الأمم الأخرى من جهة ثانية. وكان هؤلاء الوافدون "يلقون فيها الدروس لمن يستمع لهم، ويتنافس العلماء في الأخذ والرواية عنهم. فهؤلاء الأعراب الذين وفدوا من صميم جزيرة العرب على الأمصار، هم الذين نقلوا فصيح اللغة، وهم الذين عوَّل العلماء في التدوين على آرائهم."[61] ولم يكتفِ العلماء في الأمصار "في تدوين اللغة بما يسمعونه من الأعراب الذين يفدون إليهم عند تحقيق أمر من أمور اللغة، بل كانوا هم أنفسهم ينزلون البادية للتحقيق والتمحيص، ويسمعون بآذانهم منطق العرب الفصحاء فيما أشكل عليهم لفظه، أو ارتابوا في حقيقته."[62] وهكذا كان علماء اللغة يحرصون أشد الحرص على أخذ اللغة من مصادرها والتحقق منها قبل تدوينها.

لقد تحولت رواية اللغة إلى صناعة واحتراف مع بداية القرن الثاني الهجري، ونشطت حركة التدوين اللغوي خلال القرنين: الثاني والثالث للهجرة، فظهر رجال جندوا طاقاتهم المادية والفكرية لهذا الغرض فكثرت التآليف اللغوية.

ومن مشاهير علماء اللغة على سبيل المثال لا الحصر: الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170هـ) الذي كان الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله. وقد أخذ عن أبي عمرو بن العلاء (ت154هـ)، كما أخذ عنه الأصمعي (ت216هـ) وسيبويه (ت180هـ) وغيرهما.[63] "والفراهيدي مقنن اللغة العربية، وواضع علم العروض، وواضع أول معجم لغوي عربي، بل هو أول من ابتكر المعاجم اللغوية في العالم."[64] ومن أصحاب المدونات اللغوية "الأصمعي" (ت216هـ) الذي امتدحه الشافعي بقوله "ما عبرّ أحد من العرب بأحسن من عبارة الأصمعي."[65]

---

(61) عيسى، **تاريخ النبات عند العرب**، مرجع سابق، ص9–10.

(62) المرجع السابق، ص11.

(63) المرجع السابق، ص12.

(64) غنيمات، **الحضارة والفكر العالمي**، مرجع سابق، ص236.

(65) عيسى، **تاريخ النبات عند العرب**، مرجع سابق، ص15.

فبتأثير القرآن الكريم نشأت علوم القرآن واللغة نشأة مستقلة عن أي تأثير خارجي.

4 - علم الحديث

لـمّا كانت السنة النبوية -ما صدر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو إشارة- الأصل الثاني للتشريع الإسلامي، وهو لا يقل عن الأصل الأول في حقيقته الإلهية استناداً إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: 3-4]، فقد كان لا بد للمسلمين أن يتلمسوا في هذا الأصل مادة تفكيرهم وعملهم.(66)

وإذا كان القرآن الكريم قد تم تدوينه زمن النبي ﷺ، فإن الحديث لم يكتب تجنباً للخلط؛ إذ لم يبدأ جمع الأحاديث الشريفة وتدوينها إلا في أواخر العصر الأموي، ولم تكتمل عملية الجمع إلا في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري. فالأمر يتعلق بجمع ما صدر عن النبي ﷺ من أحاديث. ولكن، بعد مدّة زمنية تتراوح ما بين 100 - 150 سنة، وهذه المدّة الزمنية الطويلة تطرح بلا شك مشكلة أمام عملية جمع الأحاديث، وهي أنه كلما بَعُد العهد من زمن النبي ﷺ ازداد عدد الأحاديث؛ الأمر الذي يعني أن الحديث قد تعرض للوضع، لا سيما بعد نشأة المذاهب والفرق الإسلامية.

إن مشكلة الأحاديث الموضوعة قد فرضت وجود عملية نقدية تخضع لها عملية جمع الأحاديث. والنقد بالنسبة إلى ما يروى يجب أن يتناول جانبين أساسيين هما: نقد الرواية ونقد الرواة. ولكن، كيف يمكن للباحث أن ينقد مضمون الحديث وهو المصدر الثاني للتشريع الإسلامي؟ لذلك تخلى معظم المهتمين بهذا العمل عن نقد المضمون، وانصرفوا إلى نقد الرواة في ضوء مفهومي التعديل والتجريح.

ولقد حاز حديث النبي ﷺ لدى أمة الإسلام، من الوقاية والمحافظة ومن التشبث بهديه، ما لم يكن لحديث نبي من الأنبياء قط. لكن الخصوصية الكبرى

(66) النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق، ج1، ص32.

لهذه الأمة في نقلها للحديث النبوي كامنة في عنايتها العظمى بصيانة الحديث من التحريف فيه والدخيل عليه، وذلك بما توصلت إليه من قوانين للرواية، هي أصح وأدق طريق علمي في نقل الروايات واختبارها، حتى كان علم النقد التاريخي الحديث مديناً للمسلمين، بل إنه مقتبس عن أصول مصطلح الحديث الإسلامي.[67] "إن إدخال كثير من الإسرائيليات في الحديث أدى إلى قيام علم إسلامي جليل هو علم مصطلح الحديث، والبحث في الأحاديث بحثاً منهجياً، رواية ودراية؛ أي من ناحية تطبيق قواعد نقد النص الداخلي والخارجي."[68] وفي ضوء ما سبق يمكننا القول إن المنهج الاستقرائي في الاصطلاح المعاصر قد استخدم في نقد الحديث النبوي.

ومع تطور المجتمع الإسلامي أخذت تبرز مشكلات وقضايا جديدة، ولم يكن الحديث يغطي جميع المستجدات التي أفرزها هذا التطور، فأصبح من الضروري إعمال الرأي أو الفكر؛ أي محاولة إيجاد حلول للمسائل المستجدة، تستوحى من الدين الإسلامي نفسه وروحه العامة، وهذا هو الاجتهاد. وحتى خلال الفترة التي كان فيها الحديث يستجيب لمعظم الوقائع، فإن جماعة من المفكرين كانوا يفضلون استعمال الرأي، إما لبعدهم جغرافياً عن المدينة، وإمّا لأنهم كانوا ذوي نزعة معينة وهي نزعة أهل الرأي.

وهكذا تخصص فريق من العلماء من كبار الصحابة والتابعين في البحث عن أجوبة للوقائع السلوكية المستجدة، وذلك عن طريق جمع الروايات والأحاديث، وهذا ما سمي بـ"التفقه بالدين"، ثم أصبح يطلق عليه "الفقه".

5 - علم الفقه

ومع تطور المجتمع الإسلامي -مع الأمويين والعباسيين- أصبحت الحاجة ماسة إلى استخلاص الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة ومما أجمع عليه الصحابة، ثم أضيف إلى هذه المصادر القياس أو الاجتهاد أو إعمال الرأي،

---

(67) ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهروزوري. **علوم الحديث**، تحقيق وشرح: نور الدين عتر، دمشق: دار الفكر، ط3، 1998م، ص5.

(68) النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق، ج1، ص70.

وبذلك تحدد معنى الفقه "وأصبح صناعة وعلماً،[69] وصار يعني اصطلاحاً: العلم بالأحكام الشرعية العملية المستفادة من أدلتها التفصيلية؛ القرآن والسنة والإجماع والقياس.[70] ويعرفه ابن خلدون بأنه "معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة، وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة."[71]

6 - علم أصول الفقه

ومع استمرار تطور المجتمع الإسلامي أصبح القياس يزداد أهمية لكثرة الحوادث والوقائع المستجدة، فأخذ الفقهاء يشعرون بأنهم في حاجة إلى طريقة مقننة أو منهاج يتبعونه عند إعمال الفكر؛ أي عند استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها لما يستجد من وقائع.

وكان الإمام الشافعي أول من وضع -بكيفية صريحة وواعية- الأسس المنهجية للبحث الفقهي، فنشأ علم منهجية البحث الفقهي، وسمي بـ"علم أصول الفقه"، وهو بالنسبة إلى الفقه كاعتبار المنطق بالنسبة إلى الفلسفة. فالأصول إذن منهج البحث عند الفقيه أو هو منطق مسائله، أو بمعنى واسع هو قانون عاصم لذهن الفقيه من الخطأ في الاستدلال على الأحكام.[72] وعلم أصول الفقه بذلك هو "إدراك القواعد التي نتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، أو هو نفس القواعد الموصلة بذاتها إلى استنباط الأحكام. وبمعنى أدق هو منهج الفقه أو منطقه، مقابلاً في ذلك لمنهج الفيلسوف ومنطقه، ويسمى أصحابه بالأصوليين أو علماء أصول الفقه."[73]

إن مدار البحث في أصول الفقه بوصفه منهاجاً منطقياً للفقه هو ما يسميه علماء الفقه بالقياس. ولـمّا كان كثير من الوقائع والمستجدات التي أنتجها تطور

---

(69) ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ص446.

(70) زيدان، عبد الكريم. **الوجيز في أصول الفقه**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط7، 2000م، ص8.

(71) ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، 445.

(72) النشار، علي سامي. **مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي**، القاهرة: دار المناهج، ط4، 1978م، ص65.

(73) النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق، ج1، ص48.

المجتمع الإسلامي بعد النبي ﷺ لم تندرج في النصوص الثابتة فقد قاسوها "بما ثبت، وألحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الإلحاق تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد، وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه، وهو القياس، وهو رابع الأدلة. واتفق جمهور العلماء على أن القرآن والسنة والإجماع والقياس، هي أصول الأدلة."[74] والقياس في اصطلاح الأصوليين هو إلحاق واقعة أو حادثة لا نص على حكمها بواقعة ورد نص في حكمها لاشتراكهما في العلة. إنه تمديد حكم الأصل إلى الفرع لاشتراكهما في العلة. وأركان القياس هي:

الأصل: وهو ما ورد نص بحكمه.

الفرع: وهو ما لم يرد نص بحكمه، ويراد تحديد حكم الأصل إليه، ويسمى بالمقيس.

الحكم: وهو الحكم الشرعي للأصل، ويراد تعديته إلى الفرع.

العلة: وهي الوصف المنضبط الثابت المبرر عقلياً، والموجود في الأصل، وعلى أساسه يبنى حكم الأصل.[75]

"فالإسكار وصف في الخمر بني عليه تحريمه، ويعرف به وجود التحريم في كل نبيذ مسكر، والاعتداء وصف في ابتياع الإنسان على ابتياع أخيه بني عليه تحريمه، ويعرف به وجود التحريم في استئجار الإنسان على استئجار أخيه. وهذا هو مراد الأصوليين بقولهم: العلة هي المعرّف للحكم، وتسمى مناط الحكم، وسببه وأمارته."[76]

إن أهم موضوع يتناوله القياس الفقهي ومن ثم علم أصول الفقه هو العلة. ومما تجدر الإشارة إليه أن مفهوم العلة يختلف عن دلالته في الفلسفة. فالعلة هنا وصف لشيء؛ أي خاصية من خصائصه، فليست علة مادية أو صورية أو غائية

(74) ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ص543.

(75) زيدان، **الوجيز في أصول الفقه**، مرجع سابق، ص194-195.

(76) خلاف، عبد الوهاب. **علم أصول الفقه**، الكويت: دار القلم، ط11، 1977م، ص63-64.

أو فاعلة. إنها وصف أراد به الشارع الحكم، فإذا صرح الشارع بهذا الوصف أو أمكن إدراكه عقلياً سمي هذا الوصف علة. فتحريم الخمر مثلاً يمكن تسويغه عقلياً لكونه مسكراً، والمسكر يفقد العقل، وفقدانه يسقط التكليف الشرعي. فالقياس الفقهي يستلزم وجود علة يبنى عليها حكم الأصل. فلكي نقيس النبيذ على الخمر يجب البحث عن علة تحريم الخمر. ومن هنا فالعلة هي إحدى الموضوعات الأساسية التي يتناولها علم أصول الفقه. فإذا كان النص يدل عليها صراحة ويسميها باسمها فلا مشكل عندئذ، ولكن إذا لم ينص عليها أصبح من الواجب استخراجها. ولعلماء الفقه طرقهم في استخراج العلة والوصول إليها، ولا يتسع المقام هنا لذكرها وتفحصها؛ إذ ليس ذلك من هدف الدراسة.

كان القياس الأصولي الفقهي منهاجاً إسلامياً خالصاً توصل إليه مفكرو الإسلام بعيداً عن أي تأثيرات خارجية، وانتقل هذا المنهاج العلمي إلى دوائر العلوم التجريبية، واستخدمه العلماء المسلمون استخداماً مثمراً، فأدى بهم إلى خصوبة في النتائج.

فلقد أرجع الأصوليون القياس إلى نوع من الاستقراء العلمي الدقيق القائم على فكرتين أو قانونين هما: فكرة أو قانون العلّية؛ أي لكل معلول عِلّة. ثم قانون الاطّراد في وقوع الحوادث؛ أي إن العلة الواحدة إذا وجدت تحت ظروف متشابهة أنتجت معلولاً متشابهاً. فإذا وجدنا الإسكار في الخمر، ووجدنا التحريم، ثم وجدنا الإسكار في أي شراب آخر أيقنا بوجود التحريم فيه. وإذن، فهناك "نظام في الأشياء واطّراد في وقوع الحوادث."[77]

إن القانونين السابقين اللذين يستند إليهما القياس الأصولي هما اللذان أقام "جون ستيوارت مل" استقراءه العلمي عليهما في العصور الحديثة.[78]

7 – علم الكلام

إذا كانت علوم القرآن والحديث والتفسير واللغة والفقه وعلم أصول الفقه قد نشأت بتأثير القرآن والسنة، فإن علماً آخر قد شق طريقه إلى النشوء مبكراً إلى

(77) النشار، **مناهج البحث عند مفكري الإسلام**، مرجع سابق، ص91.

(78) المرجع السابق، ص91–92.

جانب هذه العلوم، واستمد مادته من القرآن، لكن هذا العلم الذي نشأ من طبيعة الدين الإسلامي ذاته كان في جوهره بحثاً ميتافيزيقياً؛ إنه علم الكلام.

ويعرّف ابن خلدون علم الكلام بأنه "علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب أهل السلف وأهل السنة"[79]. ويتفق هذا التعريف مع المنهج القرآني؛ إذ إن القرآن الكريم بجانب دعوته إلى التوحيد والنبوة وما إليهما، عرض لأهم الفرق والأديان التي كانت منتشرة في عهد النبي ﷺ، "فكان طبيعياً أن ينهج علماء الملة هذا المنهج فيردوا على المخالفين في الهجوم ويجددوا الحجج في الرد كلما جدد المخالفون الحجج في الطعن، فكان هذا من أسباب نشوء علم الكلام."[80]

ولقد ألمحنا إلى جانب من التصوير القرآني للصراع العقائدي الذي كان سائداً داخل الجزيرة العربية وخارجها. فمن الجدال الذي كان يدور بين اليهود والنصارى حول المسائل الميتافيزيقية؛ كالألوهية والنبوة والبعث والملائكة، إلخ، إلى طوائف من المشركين ممن ألهوا الكواكب واتخذوها شريكة لله. كما عرض القرآن الكريم لمسائل التكليف والجبر والاختيار، وأبان الحجة فيها. كما استخدم القرآن الأسلوب الجدلي مع معارضيه، وأوصى بضرورة بقاء الجدل ضمن آداب الحديث والاستماع إلى آراء الخصم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: 125].

استخدم القرآن الأسلوب الجدلي مع اليهود والنصارى مبيناً لهم أنهم كانوا يفتخرون على المشركين بأنهم أهل نبوة وكتاب، فهم قد أعرضوا عن كتبهم وحرفوها فلا مسوِّغ لهذا الافتخار. فحينما زعموا أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، ردّ عليهم القرآن بأسلوب جدلي مقنع في آن واحد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة: 18].

---

(79) ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ص458.

(80) أمين، أحمد. **ضحى الإسلام**، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط7، 1964م، ج3، ص1.

ولا قيمة للجدل العقائدي إن لم تكن الغاية منه الوصول إلى الحقيقة واتباعها. ولذلك ينهى القرآن عن مجادلة كل سفسطائي، أو كل من لا يرغب في البحث النزيه عن الحقيقة، فيدعو النبي ﷺ أن يسأل أمثال هؤلاء: ﴿هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۚ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام: 148].

وإذن، كان من الطبيعي أن يستخدم علماء الكلام أو علماء أصول الدين المنهج الجدلي في دفاعهم عن العقائد الإيمانية في وجه الخصوم. ومن ثم تأصّل موقف الدفاع والمناظرة في الفكر الإسلامي.

وقد لجأ المتكلمون إلى مجادلة كثير من المسلمين "الجدد"؛ لأن كثيراً ممن دخلوا في الإسلام بعد الفتح كانوا من ديانات مختلفة؛ يهودية ونصرانية ومانوية وزرادشتية وبراهمة وصائبة ودهريين وغيرهم. وكانوا قد نشأوا على تعاليم دياناتهم السابقة، وكان ممن أسلم علماء في هذه الديانات. فلما اطمأنوا وهدأت نفوسهم، واستقرت على الدين الجديد "أخذوا يفكرون في تعاليم دينهم القديم، ويثيرون مسائل من مسائله، ويلبسونها لباس الإسلام. وهذا ما يعلل ما نرى في كتب الفرق من أقوال بعيدة كل البعد عن الإسلام."[81]

وإذا أضفنا إلى ما سبق نشوء الفرق الإسلامية؛ الشيعة والخوراج والمرجئة، وأنعمنا النظر في أصلها لوجدناه سياسياً. ولكن هذه الفرق اصطبغت صبغة دينية، فكان أتباعها يتحاجون بالفكر والإيمان والجنة والنار، ومن ثم اختلفوا في مفهوم الإيمان والكفر والكبائر والصغائر، وحكم مرتكب الكبير ونحو ذلك. وكانت لهم حججهم وأدلتهم العقلية. وكان "لبروز الاختلافات حول الخلافة وظهور الفرق أثره في محاولة كل فريق أن يسوّغ موقفه، مما دعا إلى الاجتهاد في البحث عن الأدلة التي يدعم بها كل فريق موقفه."[82]

لقد اعتقد المتكلمون "قواعد الإيمان، وأقروا بصحتها وآمنوا بها، ثم اتخذوا أدلتهم العقلية للبرهنة عليها... ومنهج المتكلمين إقامة البرهان بعد أن آمنوا

(81) العوا، **التجربة الفلسفية**، مرجع سابق، ج1، ص117.

(82) الزعبي، أنور. **مسيرة المعرفة والمنهج في الفكر العربي الإسلامي**، عمان: دار الرازي، 2007م، ص126.

بالقواعد الأساسية للإسلام. فموقف المتكلمين موقف "محام" مخلص اعتقد صحة قضية وتولى الدفاع عنها، يصوغ لها من الحجج والأدلة ما يؤيدها ويثبت ما اعتقد من صحتها."[83] وهذا ما يؤكده ابن خلدون بقوله: "فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع، من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية."[84]

وهكذا نشأ علم الكلام نشأة إسلامية، فصدر عن المجتمع الإسلامي، وظل في جوهره العام إسلامياً بحتاً حتى القرن الخامس الهجري. وبعد ذلك "شابته عناصر يونانية، ومزج بالعلوم الفلسفية. ولكن فقهاء المسلمين لم يوافقوا على هذا المزج، وقاوموه مقاومة عنيفة، واعتبروا من قام بهذا العمل من المتكلمين مبتدعة. ومما لا شك فيه أيضاً أن متكلمي الإسلام تكلموا في الميتافيزيقا أو المسائل الميتافيزيقية... ولكن دعاهم إلى هذا حاجات ملحة وأخطار كانت تهدد مجتمعهم."[85]

لقد كان تأثير القرآن واضحاً في نشوء علم الكلام وارتباطه في نمائه وتطوره بظروف الحياة العربية الإسلامية، ومن ثم كانت الحاجة ملحة إلى ظهور فريق من مفكري الإسلام يتعقلون الدين ويدافعون عنه في وجه خصومه.

ويتضح مما سبق أننا إزاء علوم نقلية شقت طريقها إلى النشوء مبكراً، ومنهج علمي اكتشفه مفكرو الإسلام، وكان ذلك قبل اتصال المسلمين بعلوم الأوائل في الحضارات الأخرى.

وحين يحدثنا ابن خلدون عن العلوم النقلية يذكر أنها "كثيرة لأن المكلف يجب أن يعرف أحكام الله المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالإجماع أو بالإلحاق. فلا بدّ من النظر بالكتاب ببيان ألفاظه أولاً وهذا هو علم التفسير، ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي ﷺ الذي جاء به من عند الله، واختلاف روايات القراء في قراءته، وهذا هو علم القراءات، ثم بإسناد السنة إلى صاحبها، والكلام في الرواة الناقلين لها، ومعرفة أحوالهم

(83) أمين، **ضحى الإسلام**، مرجع سابق، ج3، ص18.

(84) ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ص466.

(85) النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، مرجع سابق، ج1، ص54.

وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك، وهذه هي علوم الحديث. ثم لا بد من استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط، وهذا هو أصول الفقه. وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين، وهذا هو الفقه.

كما أن الحِجاج عن العقائد الإيمانية المتعلقة بالذات الإلهية والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر بالأدلة العقلية هو علم الكلام. كما أن النظر في القرآن والحديث لا بد أن تتقدمه العلوم اللسانية؛ لأنه متوقف عليها، وهي أصناف، فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان... وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الإسلامية وأهلها.

نشأت العلوم النقلية في القرن الأول الهجري، وتحددت موضوعاتها خلال القرن الثاني الهجري. وترجع هذه العلوم في معظمها إلى القرآن والسنة. فهي مقيدة بنص إلهي مقدس، وموضوعها "النص اللغوي" فعلم النحو موضوعه الكلام، وكذلك العلوم الأخرى من بلاغة وعروض. كما أن علوم الشريعة -علوم القرآن والحديث والفقه وأصول الفقه- موضوعها "النص الشرعي" -القرآن والسنة- وهو نص لغوي وكلام عربي.[86]

فالأمر يتعلق بحركة علمية نشطة شهدها المجتمع الإسلامي منذ القرن الأول للهجرة على صعيد البحث والتأليف واكتشاف المنهج العلمي من طرف مفكري الإسلام، وكل ذلك قبل احتكاك المسلمين بالحضارات الأخرى.[87]

8 - العلوم العقلية

اتسعت الفتوحات الإسلامية، واطمأنت النفوس بعد الفتح، وبدأ الحوار الحضاري يشق طريقه، وذلك من خلال اتصال المسلمين بحضارات اليونان والفرس والهنود وغيرها، فنشطت حركة ترجمة المؤلفات العلمية والفلسفية التي استجلبت من مختلف الأصقاع، وتم استيعابها وشرحها ونقدها والإضافة إليها، ومن ثم تدوين المؤلفات المهمة في شتى مناحي المعرفة العلمية والفلسفية.

---

(86) الجابري، **التراث والحداثة**، مرجع سابق، ص151-157.

(87) النشار، **مناهج البحث عند مفكري الإسلام**، مرجع سابق، ص275-276.

ويطلق على العلوم التي نشأت وتطورت في المجتمع الإسلامي بعد الاتصال بالحضارات الأخرى "العلوم العقلية"، لاعتمادها أساساً على العقل، وعدم تقيدها بنص إلهي مقدس كما هو الحال في العلوم النقلية. والمعرفة هنا تكتسب بالبحث الحر في الطبيعة باستخدام منهجية علمية، أو تكتسب بالتأمل العقلي الخالص وهي الفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب والأندلس.

وقد مثّلت قصور الخلفاء والأمراء ومنازل العلماء والمساجد والمكتبات والمدارس مراكز إشعاع علمي، وخاصة بعد استجلاب الكتب من مختلف بقاع العالم آنذاك وترجمتها إلى اللسان العربي.(88) ومن العوامل الأساسية في تطور العلوم عند العرب والمسلمين أنهم قابلوها بروح نقدية في البحث، فكانت سبباً مهماً في تطوره ودفعه دفعة قوية إلى الأمام. ومما أسهم في تطور العلوم عند علماء العرب والمسلمين وجود المنهج العلمي الاستقرائي بين أيديهم، والذي اكتشفه مفكرو الإسلام واستخدموه في دراساتهم وأبحاثهم وتآليفهم في العلوم النقلية، ثم انتقل هذا المنهج إلى دوائر العلم التجريبي فاستخدمه علماؤنا في أبحاثهم الفيزيائية والكيميائية والنباتية والطبية والفلكية والفلاحية.(89)

وهكذا اجتمع علم آتٍ من الخارج، وعلى الأخص من اليونان والفرس والهنود، مع منهج علمي موجود في الداخل فالتحم الداخل مع دوائر العلوم الآتية من الخارج، وسارا سوياً. واستخدم المنهاج العلمي استخداماً مثمراً فترتب على ذلك خصوبة في النتائج مما أسهم في ظهور حضارة جديدة متكاملة، تسندها روح علمية جديدة لم يعرفها العالم من قبل.(90)

وفي ضوء ما سبق يمكننا القول إنه إذا كان لليونان فضل في ميدان الفلسفة، فقد كان للعرب الفضل في ميدان العلم والمنهج، الأمر الذي جعل سارتون في كتابه "مدخل إلى تاريخ العلم"، وفي مواضع متعددة منه، يشيد بالإنجازات

---

(88) منتصر، عبد الحليم. **تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه**، مصر: دار المعارف، ط6، 1975م، ص51.

(89) المرجع السابق، ص258–259.

(90) النشار، **مناهج البحث عند مفكري الإسلام**، مرجع سابق، ص259–260.

العلمية لعلماء العرب والمسلمين، مؤكداً أن معظم النتائج العلمية لمدة أربعة قرون إنما صدرت عن العبقرية الإسلامية، وأن معظم الأبحاث العلمية الممتازة خلال تلك القرون إنما تمت بلغة العلم الكبرى وهي اللغة العربية، مشيراً إلى المناخ الذي تهيأ لسطوع الحضارة العربية الإسلامية، مما أتاح للأمة العربية والإسلامية أن تقدم لأوروبا زاد نهضتها.[91] فالحضارة العربية الإسلامية كانت أصيلة، نشأت وانطلقت من الجزيرة العربية -والقرآن الكريم أهم مصادرها- لتغمر بلاداً واسعة وممالك مترامية الأطراف، فتلتقي بثقافة اليونان فلسفة وعلوماً- التي كانت مبعثرة وعلى وشك الضياع، ومنزوية في بعض المراكز. فترجمها العرب في عواصمهم، ونفضوا عنها غبار الإهمال، وحفظوها من الضياع، واستوعبوها، وقابلوها بروح نقدية، وأضافوا إليها من إبداعهم. ومن ثم كان نقلهم عن اليونان نقل الأعلى عن الأدنى، والأقوى عن الأضعف، خلافاً للأوروبيين حينما نقلوا عن العرب؛ إذ لم تكن لديهم حضارة، فكان نقلهم عن العرب نقل الأدنى عن الأعلى والأضعف عن الأقوى.[92]

خاتمة

كان القرآن الكريم محور اهتمامات المسلمين، فكان عليهم تدبره وفهمه ومعرفة أحكامه لتطبيقها، واستوجب ذلك تفسير القرآن الكريم، فنشأ علم التفسير إضافة إلى علم القراءات، وتطلب تفسير القرآن الاهتمام باللغة، فظهر فريق من مفكري الإسلام تمحورت اهتماماتهم في جمع مفردات اللغة العربية، وحصر الألفاظ الدخيلة عليها. ولما كثرت التآليف اللغوية استلزم ذلك وضع قواعد لهذه اللغة، فنشأ علم النحو إضافة إلى علمي البلاغة والعروض.

ولما كانت السنة المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم، فقد ظهر فريق من العلماء يهتمون بجمع الأحاديث وتدوينها وتصنيفها. ولأن الحديث تعرض للوضع؛ فقد فرض ذلك وجود عملية نقدية تخضع لها عملية جمع الأحاديث، فانصرف معظم المهتمين بذلك إلى نقد الرواة في ضوء مفهومي

(91) المرجع السابق، ص260.

(92) اليافي، **تمهيد في علم الاجتماع**، مرجع سابق، ص127.

التعديل والتجريح، ومن ثم استخدم المنهج الاستقرائي في التعامل مع الحديث.

وتخصص فريق من الصحابة والتابعين في البحث عن حلول لما يستجد من مسائل أو وقائع، وذلك عن طريق جمع الأحاديث والروايات، ومما أجمع عليه الصحابة، فسمي هذا العمل التفقه في الدين، وشيئاً فشيئاً أطلق عليه الفقه. ولقد أفرز تطور المجتمع الإسلامي مستجدات فرضت ضرورة إعمال الرأي أو الاجتهاد، فأضيف القياس إلى مصادر التشريع، وأصبح علماً.

وكان من الضروري وجود طريقة مقننة أو منهج يتبعه الفقهاء عند استنباط الأحكام الشرعية، فكان الإمام الشافعي أول من وضع وبكيفية واعية الأسس المنهجية للبحث الفقهي، فنشأ علم منهجية البحث الفقهي، وسمي علم أصول الفقه، وأهم ما يتناوله القياس الفقهي، ومن ثم علم أصول الفقه، هو العلة التي يبنى عليها حكم الأصل، فكانت هناك منهجية علمية في البحث عنها، وهي السبر والتقسيم. وهما عمليتان متكاملتان يستعملهما الفقيه لتخريج العلة أو مناط الحكم، ومن ثم تنقيح المناط وتحقيقه. وكان القياس الأصولي الفقهي منهاجاً إسلامياً خالصاً، توصل إليه مفكرو الإسلام دون أي تأثير خارجي.

وتبين لنا أن نشوء علم الكلام من طبيعة الدين الإسلامي ذاته؛ إذ استمد مادته من القرآن، ولكنه كان في جوهره ميتافيزيقياً. وصحيح أن الإسلام لم يدعُ إلى قيام تفسير للمسائل الميتافيزيقية، وما على المسلمين إلا أن يؤمنوا بها ويقفوا عندها؛ إذ إنها خارج حدود قدرة العقل الإنساني، لكنّ جملة من العوامل تضافرت وأسهمت في نشوء هذا العلم، ودعت إلى قيام علم الميتافيزيقا استناداً إلى القرآن نفسه. وبذلك كانت نشأة علم الكلام إسلامية إلى جانب العلوم الأخرى.

وهكذا نشأت العلوم الإسلامية في تداخل وتشابك مع عملية تقعيد اللغة؛ أي مع عملية استثمار كلام العرب من أجل صياغة العلاقات بين عناصره في قواعد، فكان ذلك أول عمل علمي مارسه المسلمون. وهذا يعني أن العلوم اللاحقة أو المواكبة لعلوم اللغة استمدت تقنياتها من هذا العلم الرائد وهو علم النحو. وبالفعل، فقد كان القياس النحوي أساس القياس الفقهي والاستدلال

الكلامي. فالشافعي المؤسس لعلم أصول الفقه قد أخذ القياس عن النحاة الذين سبقوه إلى ممارسته بوعي. فلقد مارسه الخليل بن أحمد الفراهيدي ومارسه تلميذه سيبويه. وقنن الفقهاء القياس وطوروه، لكنّ الميدان الذي نشأ فيه وتبلور كطريقة في إنتاج المعرفة هو ميدان النحو. فكان للنحو والأبحاث اللغوية تأثير واضح في طريقة المتكلمين. فالاستدلال بالشاهد على الغائب، وهو الاستدلال في علم الكلام هو نفسه قياس الغائب على الشاهد عند النحاة والفقهاء. وإذا كان رجوع الفقهاء إلى اللغة من أجل الوقوف على معاني الكلمات ودلالاتها المختلفة لاستثمار النصوص الدينية فقهياً، فقد كانت اللغة السلطة المرجعية عند المتكلمين في تحديد المفاهيم الميتافيزيقية.

وعليه، فقد كان البحث المنهجي في اللغة المؤسس لكل منهجية لاحقة، وكان النص هو موضوع البحث، سواء تعلق الأمر بالفقه أو بالكلام. وبناءً على ما سبق، يمكن أن نقرر أن العلوم الإسلامية (العلوم النقلية) وتشمل: علوم القرآن والحديث واللغة والفقه وأصول الفقه، تجمعها وحدة المنشأ ووحدة الموضوع.

أمّا وحدة المنشأ فتعني أنها كلها نشأت في مدّة زمنية واحدة، وهي القرن الأول للهجرة، وتحدِّد موضوع كل منها في القرن الثاني للهجرة، كما تحددت طريقة البحث ومنهجيته. ونعني بوحدة الموضوع أن موضوع العلوم النقلية كلها هو النص اللغوي. إن وحدة الموضوع مع وحدة المدّة الزمنية التي نشأت فيها هذه العلوم قد فرضت وحدة المنهج.

وهكذا شهدت الساحة العربية الإسلامية ظهور علوم إسلامية نشأت بتأثير القرآن والسنة، ومنهاجاً علمياً وضعه مفكرو الإسلام واستعملوه في علومهم، ثم انتقل هذا المنهج إلى دوائر العلوم التجريبية، وجرى استخدامه استخداماً مثمراً، الأمر الذي أدى بهم إلى خصوبة في النتائج، دونت في مؤلفاتهم العلمية المهمة.

ومن الجدير بالذكر هنا ضرورة الاهتمام بالجانب العلمي من تراثنا العربي الإسلامي بكيفية عامة، وضرورة التدبر والتفكر والدراسة المعمقة في نصوص القرآن والسنة بكيفية خاصة، ومن ثم التأريخ للفكر العلمي عند علماء العرب والمسلمين ونشأة المنهج العلمي عندهم، وانتقاله إلى الغرب واستخدامه هناك،

مع مراعاة العودة إلى الأصول وتحقيق ما بقي من مخطوطات تتعلق بهذا الجانب العلمي، ثم إبراز الترابط والتكامل بين العلوم الإسلامية التي شقت طريقها إلى النشوء مبكراً، بعيداً عن أي تأثيرات أجنبية، وعلاقة ذلك بالعلوم التجريبية التي نشأت في الساحة الإسلامية بعد دخول أو إدخال علوم اليونان وفلسفتهم في المجتمع الإسلامي.